كيف صاغ الإسلام شخصية الإنسان

للأستاذ محمود محمد عمارة
المدرس بمعهد دسوق الدينى

بدنا فى البحث السابق كيف خاطب القرآن الكريم ملكات الإنسان كلها.. وأيقظها من سباتها . . حتى تكون مهيأة لتلقى قواعده ومبادئه ..

وقد وعدنا أن نبين بعض هذه العقائد . . لنرى كيف صنع الله الإنسان على عينه . . ليقود الركب الحائر إلى ربوة النجاة : فعندما نقرأ نحن المسلمين كتاب الله ونتدبر آياته لنبصر فى مرآته أنفسنا .. وما أعدلنا .. ونتحسس موقف هذا الكتاب المبين من الفرد والجماعة .. سيخفق فى قلب كل إنسان منا إحساس بالعزة .. وشعور بالكرامة . . حتى لكأنه ملاك يطير عبر السماء بأجنحة علوية . وستدرك الجماعة إلى أى حد كرمها القرآن .. ودفع بها إلى العلا درجات.

وكنتيجة طبيعية لهذه الأحاسيس . . سيشتد تعلقنا بالدين وآدابه . . وتزداد ثقتنا بتشريعاته . . لا سيما فى هذا الوقت العصيب .. الذى تجند فيه الشيوعية جندها .. وتشحذ سلاحها.. لتقطع على الدين الحنيف زحفة الصاعد .. ليحقق سعادة الإنسان : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواهم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

فتعال معى أيها القارىء العزيز إلى كلمة سواء : أن نقف وقفات قصار أمام بعض الآيات الكريمة . . حتى نستشف ماترمز إليه وتحض عليه من القواعد والعقائد .. لنهتف سوياً.

إن هذا الدين كان ربوة سامقة . . ارتفعت بالبشر إلى مستويات مثالية عالية . . وبوتقه انصهر فيها الإنسان ليخرج إلى الحياة ذهباً خالصاً!

إقرأ قوله تعالى :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » .

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات

وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »

تشير الآية الأولى أن الإنسان قد وقع عليه الاختيار ليكون نائباً عن القدرة العليا فى عمـــارة الأرض . . وتفيد الثانيـة أنه أشرف مخلوق على ظهرها . . فإذا كان عبدا لله . . ففى الوقت هو سيدها ورائد الإصلاح فيها .

والسؤال الآن :

ماهى النتيجة الخلقية لشعور المرء بأنه أكرم مخلوق ؟ إن إحساسه بهذا .. من شأنه أن يغرس فى قلبه الطموح . . والثقـة بالنفس . . والترفع عن الدنايا التى خلقت من أجله كرائد خلقت له الأرض مطية ذلولا .

ولاستمرار هذه الفضائل فى النفس نتائج طيبة ذات أثر فعال فى الحياة .

فالرجل الطامح :

لا يقدم رجلا ويؤخر أخرى .. بل إلى الأمام دائماً شعاره : الإقدام .. عند ما تزل الأقدام !

وبذلك لايجد التردد إلى قلبه سبيلا . . فيستريح الإنسان من رذيلة طالما أضاعت فرصاً سانحة . . وصفقات رابحة .

والرجل الواثق فى نفسه :

ليست به حاجة إلى أن يتزلف إلى غيره من الناس ابتغاء عرض الحياة الدنيا ..

وليس هو فى حاجـــة إلى جنون العظمة . . وإلى حاشية من المنافقين تملأ فراغ أذنيه بألقاب هو منها براء ! فاغتراره بنفسه . . وإعتماده عليها . . يدفعه بعيداً عن أرض النفاق .. تلك الرذيلة التى تشوه جمال الحقيقة وتطمس معالمها فى سبيل مغنم لا يساوى ملء قبضتك نخالة !

وعند مايبتعد الرجل عن محقرات الأمور ويتطلع إلى معاليها :

سيغادر الجو الخانق الكريه . . إلى رحبات فسيحة رفيعة .. إلى أجمل بيئة يصقل فيها الضمير . . ويتطهر القلب . .

فيصبح الحكم على الأشياء سليما .. بعيداً عن مختلف المؤثرات ..

وهكذا .. يصبح الإنسان ربانياً : يقول للشىء كن فيكون .

بيد أن الإنسان قد يمتلك مثل هذه الكنوز من الفضائل والشمائل .. ثم لا يجد أسواقاً رائجة لينفقها فيها ! قد يتسرب اليأس إلى قلبه .. ويشيع القنوط فى نفسه . . إزاء عصر ترك الناس فيه الصـــلاة واتبعوا الشهوات حتى

ليكاد يكفر بجدوى هذه القيم فى دنيا الناس .

ولكن نداء حبيباً يهبط عليه من لدن الحق تبارك وتعالى يذكره بأن هناك حياة أخرى يوفى الصابرون أجرهم فيها بغير حساب .

وهنا نستنبط قاعدة هامة أريد بها أحكام بناء الإنسان الروحى :

فالأيمان بالحياة الأخرى يطرد اليأس من قلوب العاملين إنتظاراً لهذا اليوم . . الذى سينعمون فيه بما لا عين رأت . . ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر . . بعد أن جنوا فى حياتهم أشواك الجحود !

وهذا الأيمان أيضاً يطرق قلوب الجاحدين . ويهزها هزا . . حتى تصحو من غفوتها . . وتشعر بوجود يوم يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به

وبذلك تذيع الفضائل وتشيع فى ظلال الأيمان بيوم القيامة . . . ويتجدد تعلق الناس بهـــا . . . والاستمساك بحبلها .

وهنا نصل إلى إجراء لا يقل خطراً عن سابقيه فى إحكام بناء الفرد والجماعة :

فالأسلام يغرس فى وعى الجماعة المسلمة : أنها فوق الجميع ! .

« كنتم خير أمة أخرجت للناس »

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا . . لتكونوا شهداء على الناس »

والأمة التى تعيش فى ظل هذا الشعور لا تسمح لأمة أخرى أن تسبقها فى ناحية من نواحى النشاط : ثقافية كانت أو اجتماعية أو صناعية .

وكلما أتاها نبأ إختراع جديد . . حاولت أن تساوقه أو تسبقه .

وكلما نالت أمة سبقاً . . اندفعت بكل قواها مستخدمة جميع أمكانياتها حرصا على الوسام الخالد الذى علقته فوق صدرها يد الحق سبحانه وتعالى

وناهيك بالنتائج الرائعة . . والمستقبل السعيد الذى ينتظر مثل هذه الأمة الطامحة .

غير أن الخبير بالنفوس وطبائعها العليم بالجماعات واتجاهها . لم يشأ أن يصوغ شخصية الإنسان على هذا النحو دون إجراء وقائى . . يحكم غرس هذه المبادىء فى النفوس . . حتى لا تنمو فى أرض رخوة لا تمدها بناء أو بقاء . . فيكون ظاهره رواء . وباطنه خواء ! !

فعندما بين الله سبحانه أن الإنسان أكرم مخلوق . . بين فى موضع آخر مقومات هذه الكرامة فقال تعالى :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

فالعمل الصالح وحده كفيل بأن يحشر الإنسان فى زمرة الأبرار .

ولم يرد سبحانه أن يصرف انتباه الناس إلى الدار الآخرة وحدها . . وإلا خربت الحياة . . . وتعطلت الحواس التى لم تخلق إلا لتعميرها وتطويرها بل وجهنا أيضاً إلى التمتع بما فى الحياة من مباهج :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »

وقبل أن تدق الجماعة الإسلامية أقدامها فى الأرض زهواً . . وقبل أن تشمخ بأنفها فى السماء كبرا . . أمام شهادة الله لها بالرفعة والسمو : نراه وقد أخذ بخطامها .. وملأ وعيها بالأساس الوطيد الذى نبنى عليه هذا الحكم فقال تعالى :

« تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »

أى أن وضعكم كحملة المشاعل عبر الطريق . . كرواد يبشرون بمبادىء الخير والسلام . . وينفرون من رذائل النفوس ونزعات الشيطان كل هذا . : إنما هو حيثيات جاء على أثرها الحكم الخالد : كنتم خير أمة أخرجت للناس ! !

فهل قمنا الآن على قلب رجل واحد لنمارس تلك الشعيرة حتى نكون جديرين بمكانتنا التى أريدت لنا ؟

لقد حمى وطيس المعركه بيننا . . وبين طغمة الشيوعيين الذى جحدوا الدين . . وجعلوا القرآن عضين . .

فهل سينتصر الشيوعيون ورائشو نبالهم والحاطبون فى حبلهم ؟

لا . . وألف مرة لا !

لأن الجندى المسلم . . الذى صاغه الله على تلك الصورة مستحيل أن يهزم أبدا . .

ومهما كثر فى يد الشيوعيين السلاح ومهما لاحت لعيونهم بوارق الوعود . . عبر الحدود !

فهم بغاث من الطير اجتمعن على صقر ! وسينتصر الصقر . . ويحلق فى اجواز الفضاء مردداً لحن السلام :

أما أنتم أيها الشيوعيون فمغانمكم ستكون :

أحزان يعقوب . .

ومواعيد عرقوب

وإلى العدد القادم بمشيئة الله .